جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

النماذجُ النَّظريةُ في علم الاجتماع
بين الحتمية واستقلالية الفعل

فواز عويد العنزي

أستاذ مشارك
قسم علم الاجتماع
كلية العلوم الاجتماعيّة
جامعة الكويت
Fawazalanezi@yahoo.com

عبد العالي دبلة

أستاذ
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر
بسكرة/الجزائر
debladz@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/١٠/١٤
تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٠/٠٦/٢٠

النماذجُ النَّظريةُ في علم الاجتماع
بين الحتمية واستقلالية الفعل

فواز عويد العنزي، وعبد العالي دبلة

الملخص

نتيجة للتحولات الاجتماعيّة والسياسية والاقتصادية في أوروبا ظهر علم الاجتماع الحديث؛ للإجابة عن كثير من التساؤلات وتفسير المشكلات التي نتجت عن هذه التحولات. واليوم يواجه علم الاجتماع تحدياتٍ جديدةً ناتجه عن تحولات مشابهةٍ لتلك التي حدثت في القرن التاسع عشر، مثل: العمل، والطبقة، والانتاج، والتماسك الاجتماعيّ، والمجتمع الاستهلاكي، والعولمة، وتكنولوجيا الإعلام، والتواصل الاجتماعيّ، والرقمنة أو التحول الرقميّ، والعنف والإرهاب، وأخيراً التباعد الاجتماعيّ. وهو الأمر الذي جعل بعض الباحثين يشكك في مستقبل النظرية الاجتماعيّة وفي قدرة علم الاجتماع على تقديم تفسيرات وإجابات على مثل هذه التغيرات. وهو الأمر الذي جعل البحث الحالي يهدف إلى تسليط الضوء على مستقبل النظرية الاجتماعيّة، وذلك من خلال استعراض الآتي: ١- التركيز على النظرية الاجتماعيّة «الفعل الاجتماعيّ» من نماذج الحتمية إلى نماذج الاستقلالية. ٢- التركيز على «ما بعد الحداثة» إلى عودة الفاعل. ٣- العلاقة بين «الفعل» و«الفاعل» والثنائيات التي حكمت علم الاجتماع والنظرية عبر تاريخهما ومدى إمكانية تجاوز هذه الثنائيات في مستقبل علم الاجتماع. وأخيراً، عرضَ البحثُ الطرحَ الذي قدمه آلان تورين «للبراديغم» الجديد في علم الاجتماع، والذي يركز على الجانب الثقافي والفردانية، وهو ما ينبئ بدخول مرحلة جديدةٍ، عنوانها «الثقافي والحقوق الثقافية» والتي تتميز بظهور الفردانية.

الكلمات المفتاحية: النظرية الاجتماعيّة، الفعل الاجتماعيّ، "البراديغم" النموذج الجديد.

Theoretical models in sociology
Between determinism and autonomy

Fawaz Al-Anezi and Abdel-Aali Debla

Abstract

Because of social, political and economic transformations in Europe, modern sociology emerged to answer many questions and explain the problems that resulted from these transformations. Today, Sociology faces new challenges caused by changes that have emerged in our societies, similar to those that had accrued in the nineteenth century Europe. Changes such as Work, Class, Production, Social Solidarity, Consumption Society, Globalization, Modern Communication Technology, Social Media, Digitalism, Violence, Terrorism, and the last social spacing ... made many researchers express their skepticism and doubts about the future of social theory. Therefore, this study tried to shed light on the future of social theory through: 1- Social theory's focus on "social action" from models of determinism to models of agency, 2- "post modernism" to the return of the "actor", 3-The relationship between "social action" and "actor" and the dichotomy that ruled sociology and social theory through their history. Finally, the study presented the new paradigm of Alain Touraine that focuses on the cultural side and individuality, which declares a new era that has Cultural Rights and Individuality as its title.

Keywords: Social Theory, Social Action, the New Paradigm.

المقدمة

ظهر علم الاجتماع في خضم تحولات بنيويةٍ عميقةٍ في القرن التاسع عشر نتيجةً لثوراتٍ ثلاث حاسمة (الثورة السياسية والثورة الاقتصادية والثورة الثقافية العلمية) عجَّلت بدخول المجتمع إلى مرحلة الحداثة، وهكذا ظهر علم الاجتماع في هذه الظروف الجديدة؛ ليجيب عن كثيرٍ من التساؤلات من جهة وإيجاد حلولٍ لهذه المشكلات الناشئة، وهكذا ارتبط علم الاجتماع منذ البدايةِ بالحداثة من جهة وبالواقع الاجتماعيّ بكل تجلياته من جهة أُخرى.

ويبدو أنَّ التاريخ يعيد نفسه، فالمجتمعات الحالية تعيش تحولاتٍ عميقةٍ شبيهة بالتي حدثت في القرن التاسع عشر. إن مواضيع العمل والطبقة والإنتاج والتماسك الاجتماعيّ والنِّظام والصراع توارت إلى الوراء فاسحةً المجال لمواضيعَ جديدةٍ، مثل الجندرية Gender، الشباب، المجتمع المدني، العولمة، البيئة، والاستهلاك الترفي أو ما أطلق عليه جون بودريار Jean Baudrillard مجتمع الاستهلاك: الأساطير والبناءات The Consumer Society: Myths and Structures (1970)، ما بعد الحداثة، ما بعد البنيوية، التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، الرقمنة، مجتمع الشبكات الإرهابية والعنف وغيرها من المواضيع، محدثة بذلك صدمةً قويةً لعلماء علم الاجتماع حتى شكَّك البعض في النظرية السوسيولوجية ومستقبلها في ظل هذا التطور غير المسبوق، وهو الأمر الذي دفع «نيكولاس جين» (٢٠١٤: ٢١- ٢٢). إلى القول: إن النظرية الاجتماعيّة تواجه أوقاتا عصيبة، وأنها ذات مستقبل ضئيل، بل إن البعض أعلن بكل صراحةٍ عن وفاة "المنظور الاجتماعيّ" الذي قام عليه علم الاجتماع والنظرية السوسيولوجية، وقد كان الإعلان الأكثر شهرة ما جاء به جون بودريار خلال مؤلفه "في ظل الأغلبية الصامتة" In the Shadow of the Silent Majorities (1982) حيث قدم ثلاثة سيناريوهات بديلة لذلك، هي كالتالي:

السيناريو الأول: أن ما هو اجتماع لم يكن قائما أبداً في الواقع. بل الذي وجِد مجرد محاكات لما هو اجتماعيٌّ والعلاقة الاجتماعيّة.

السيناريو الثاني: أن ما هو اجتماعيٌّ يوجد الآن في كلِّ مكانٍ، ويستثمر كل شيء.

السيناريو الثالث: أنَّ ما هو اجتماعيٌّ وجِد بالفعل ولم يعد كذلك. لقد ارتبط علم الاجتماع منذ ظهوره بالحداثة، بل إنه وليد الحداثة ذاتها، ورغم أننا نعيش مرحلة جديدةً، أُطلق عليها ما بعد الحداثة، إلا أن الاشكاليات والتناقضات التي عالجتها الحداثة ما زالت كما هي: الذات والموضوع، الفرد والجماعة الفردانية والكُليانية أو الشمولية «Holisme»، الفاعل والبنية، الممثل والنسق....إلخ، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنَّ الرواد الأوائل لعلم الاجتماع حاولوا أنْ يوفقوا بين هذه الثنائيات (أوجست كونت، إميل دوركايم، تالكوت بارسونز)، لكنَّ الأمر لم يُحسَم بعدُ، فرغم العديد من النظريات والنماذج النظرية ورغم كل المحاولات للتوفيق بين ذلك، إلا أن الأمر مازال مطروحا على الساحة النظرية في علم الاجتماع.

ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على بعض المحاولات النظرية التي أرادت أن ترسم طريقا متميزاً متخذةً من هذه الثنائية موضوعاً رئيسياً، ورغم تعارضها مع بعضها بعضا فإنها أسهمت في بَعث النظرية الاجتماعيّة، وفتحت النقاش والسجال الفكريّ من جديد. إن كثيراً من الدراسات حول النظرية كانت نمطية بحيث تتناول النظريات، سواء من خلال التوجهات الأيديولوجية، أو من خلال مدارس معينة أو من خلال الفترات الزمنية التي ظهرت فيها أو من خلال الحقب التي ظهر فيها علم الاجتماع (الحداثة وما بعد الحداثة، الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية، البنيوية وما بعد البنيوية، الماركسية والوظيفية...إلخ) ويمكن على سبيل المثال ذِكْر المراجع التالية:

١- ميل تشرتون وآن براون. علم الاجتماع النظرية والمنهج.
٢- روس والاس، إلسون وولف. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع- تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية.
٣- بيار أنصار. العلوم الاجتماعيّة المعاصرة.
٤- ايان كريب. النظرية الاجتماعيّة من بارسونز إلى هابرماس.

1- Corcuff. Philippe. Les nouvelles Sociologie.
2- Jean Michel Berthelot (sous la direction). La Sociologie française contemporaine.
3- John Scott. Social Theory; Central Issues in Sociology.
4- Michel lallement. Histoire Des Idées sociologique. De Parsons Aux Contemporains.
5- Keucheyan, R.Bronner G.(sous la direction).La Théorie sociale.
6- Giddens A. 1988. Social Theory Today. Jonathan Turner (edr.).

مشكلةُ البحث:

من خلال هذا البحث سوف يتم تجاوز هذا الطرح، وسيتم التركز على نظريات معينة، تناولت الموضوع الرئيس الذي قام عليه علم الاجتماع والمتمثل في الثنائيات: الفرد والجماعة الفردانية والكلية، والفاعل والبنية، والممثل والنسق...إلخ. وكيفية معالجتها وتناولها لهذا الموضوع والحدود التي وصلتها في ذلك. إن عملية التنظير والكتابة حول النظرية عمليةٌ صعبة ومحفوفة بالمخاطر، ومع ذلك فهي تستحق المغامرة، وكما قال «هارفي» مكتشف الدورة الدموية «ومع ذلك سوف أرمي النرد»؛ لأن الأمر يتطلب فهم وتفسير الواقع الذي نعيشه والمحيط الذي نتفاعل فيه مع غيرنا محلياً وعالميًّا، وعن طريقها تتراكم لنا المعارف ولولا ذلك لما حصل هذا التطور الذي وصلت إليه البشرية.

إن البنيوية التكوينية والفردوية المنهجية وعلم اجتماع الفعل والانعكاسية الاجتماعيّة ونظرية التشكل الحضاريّ لنوربرت أليياس والاتجاهات التفاعلية بمختلف مشاربها أمثلة على هذا الحوار الفكريّ المثمر، سواءٌ أكان طرحاً جديداً أم متجدداً أم امتداداً للنظريات الكلاسيكية، فقد طرح فهماً وتصوراً جديدين

لجدلية البناء والفعل، والفردي والجماعي، ومفاهيم ومصطلحات جديدة، أغنت النظرية الاجتماعيّة ودفعت بالبحث الاجتماعيّ إلى آفاق جديدة.

إن المقولتين الرئيستين اللتين ستحكمان هذا البحث هما "البناء Structure والفعل Action"، فمن خلال استعراض بعض النظريات التي يمكن رؤيتها على أنها وجدت لها مكانا في خريطة النظرية الاجتماعيّة في العقود الأخيرة ستكون هاتان المقولتان مركز التحليل والنقاش والنقد.

إن الإشكالية الرئيسية لهذا البحث تسعى إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

١- كيف تناولت الاتجاهات الجديدة في علم الاجتماع ثنائية البناء والفعل أو الفردي والجماعي؟
٢- وهل استطاعت أن تتجاوز هذه الثنائية؟
٣- ما وجهة نظر آلان تورين (١٩٧٣) A. Tourain "للبراديغم" الجديد The New Paradigm في علم الاجتماع؟
٤- وما انعكاسات ذلك على مستقبل النظرية الاجتماعيّة في ظل المتغيرات الجديدة التي يشهدها العالم؟

أهداف البحث وأهميته:

البحث الحالي يهدف إلى إعادة طرح موضوع النظرية الاجتماعيّة من جديد وفتْح النقاش مجدداً حوله في عالمنا العربي حتى يمكننا أن نتموقع فكريًّا، وأن نتخذ موقفاً نظريًّا من التوجهات الجديدة في علم الاجتماع وكيفية الاستفادة منها كأفراد أو كمجموعات. وتنبع أهمية هذا البحث من الأهداف المحددة سلفاً، فموضوع النظرية والنماذج النظرية في علم الاجتماع ما زال يثير كثيرا من النقاش والجدل؛ لهذا نرى أن البحث من الأهمية بمكان حيث سيفتح لنا آفاقًا من التناول الفكريِّ الأكاديميِّ بين الباحثين في عالمنا العربي.

أيضا يحاول البحث تقديم تصور وتصنيف خاص للنظرية في علم الاجتماع يبتعد عن التصنيفات المعتادة التي تتناول مجمل النظريات التي ظهرت في مجال علم الاجتماع، وهي عديدةٌ ومتنوعة، ولكننا نريد أن نقدم إسهامًا يحتاجُ إلى النقاش والإثراء والنقد حتى نستفيد جميعاً من هذا الحوار الفكريّ في مجال النظرية في علم الاجتماع، حيث سيتم التركيز على بعض النظريات التي نرى أنها قدمت إضافات وطرحت مفاهيم وتصورات جديدةً وكيفية الاستفادة منها في عالمنا العربي حيث لم نستطع حتي الآن أنْ ننتج نظرية اجتماعية خاصة بنا في العالم العربي رغم المحاولات العديدة، ولسنا هنا في موقعٍ لبحث أسباب ذلك فهذا يتجاوز حدود هذا البحث.

وأخيراً، يقدم البحث الطرح الذي قدمه آلان تورين (١٩٧٣) A. Tourain "للبراديغم" الجديد في علم الاجتماع والذي يركز على الجانب الثقافي والفردانية، وهو الأمر الذي ينبئ بدخول مرحلة جديدةٍ، عنوانها "الثقافيُّ والحقوق الثقافية" والتي تتميز بظهور الفردانية.

منهجية البحث:

يعتبر البحث الحالي من البحوث النظرية المكتبية ذات الأهداف الوصفية والتفسيرية، مع محاولة طرْح بعض المفاهيم والتصورات الجديدة في علم الاجتماع وكيفية الاستفادة منها في عالمنا العربي. وللقيام بذلك اعتمد البحث على القراءة المتأنية للعديد من النظريات والنماذج في علم الاجتماع سواءٌ كانت القديمة منها أو الحديثة وخاصة المرتبطة بموضوع البحث، مع تقديم ملخص لبعضها.

وقد تمثل مجتمع البحث في الدراسة الحالية في مجموعة النماذج والنظريات الاجتماعيّة في علم الاجتماع، سواء القديمة أو الحديثة كوحدات للتحليل. أمَّا عينة البحث فقد اقتصرت على النظرية الاجتماعيّة «الفعل الاجتماعيّ»، وعلى الطرح الذي قدمه آلان تورين «للبراديغم» الجديد في علم الاجتماع، وبالتالي يمكن القول بأن الفعل الاجتماعيّ هو وَحْدَةُ التحليل في البحث الحالي. وقد تم استخدم أدوات منهجية عديدة في عملية التحليل، هي: القراءة المتأنية؛ والسرد؛ والرصد؛ والتأويل؛ والاستنتاج.

تعريف مفهومي النظرية والنموذج والبراديغم:

يعرِّف كامل محمد عمران النظرية Theory بأنها مجموعةٌ من المعرفة العقلية الخاصة المرتبطة منهجيًّا ومنطقيًّا (عمران، ٢٠٠٤: ١١). وقد عرف (موريس انجرس) أيضًا النظرية بأنها مجموعة من المصطلحات والتعريفات والافتراضات، لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظمة للظاهرة، وذلك بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها (انجرس، ٢٠٠٤: ٥٤). وفي السياق نفسه يعرف محمد عاطف غيث وآخرون النظرية بأنها مجموعة مبادئ وتعريفات مترابطة، تفيد "تصوريا" في تنظيم جوانب مختارة من العالم الإمبريقي على نحو منسقٍ ومنتظم (غيث وآخرون، ١٩٧٩: ٤٨٦).

ويري أحمد إبراهيم خضر (٢٠١٧) أن النظرية الاجتماعيّة Theory Social مجموعةٌ من القضايا الاجتماعيّة التي تشكل فيما بينها نسقًا معرفيًّا، يقود إلى بناء عدد من الاستنتاجات، تَدعمها معطيات الملاحظة والمشاهدة، ويمكن القول بناءً على ذلك: إن النظرية تشتمل على بُعدين أساسين؛ هما:

١- البعد المعرفي، ويتمثل في القضايا المعرفية المترابطة التي تطرحها النظرية.
٢- البعد المنهجي، ويتمثل في الطرق التي يتعين توظيفها في تحليل القضايا التي تتناولها النظرية.

وفي ضوء ما سبق يمكن تعريف النظرية بأنها إطارٌ فكريٌّ، يفسر مجموعة من الحقائق العلمية، ويضعها في نسقٍ علميٍّ مترابط. ويري روبرت ميرتون (١٩٥٧) Merton أن النظرية تساعد في وضع البحث وتصميمه وتوجيه مراحله، وتجنِّبُه بعض الأخطاء المنهجية إلخطيرة التي من الممكن أن تعترض طريق الباحث. والبحث من ناحية أُخرى يعمل على فتْح الطريق للنظرية وتنقيتها وتحقيقها وإعادة تشكليها، فالوضع الأمثل أن يلعب كلٌّ من البحث والنظرية أدواراً متبادلة، وفي بعض الأحيان يأتي أحدهما

أولاً وفي أحيان أُخَر يُقدَّم الثاني، ولكنهما في النهاية متعاونين معاً بطريقة مستمرة، تدعم بعضهما بعضاً.

والنظرية لها أدوارٌ متعددة، فهي التي تمدُّ الباحث بمجالٍ للتوجيه كي يستطيع في ضوئه أن يختار من المعلومات ما يصلح للتجديد وهي التي تقدم الإطار التصوري الذي ينظم الظواهر ويصنفها، ويحدد العلاقات التبادلية منها (Merton, (1979 .

أمَّا مصطلح نموذج أو أنموذج Model في اللغة فيشير إلى نمطٍ أو شكل أو طراز أو مثال يُقتدَى به أو يُحتذَى به. ويعرف أحمد إبراهيم خضر (٢٠١٧) النموذج بأنه أداة تحليلية ونسق متكامل، يدرك الناس من خلاله واقعهم، ويتعاملون معه ويصوغونه. فالنموذج بنية فكرية تصورية، يُجرِّدها العقل الإنسانيُّ من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل، فيختار بعضها ثم يُرتبها ترتيبًا خاصًّا، أو يُنسقها تنسيقًا خاصًّا؛ بحيث تصبح مترابطة بعضها ببعض، ترابطًا يتميَّز بالاعتماد المتبادل وتشكل وَحدة متماسكة يُقال لها أحيانًا عضوية.

أيضا يعرف محمد عاطف غيث وآخرون النموذج بأنه نمط العلاقة التصويرية أو الرياضية، الذي تكونه لتقليد أو نسْج أو إيضاح نموذج العلاقات التي تقوم بين ملاحظات أحد الباحثين. ومن أمثلة ذلك نماذج الفعل الاجتماعيّ والبناء الاجتماعيّ والنموذج التطوري والنموذج العضوي والنموذج السببي... وطالما أن العالم الذي تقوم بملاحظته لا يمكن أن يُلاحظ برمته، فإن كل نموذج يعكس جانباً محدوداً من جوانب العالم الكلي (غيث وآخرون، ١٩٧٩: ٢٩٢).

ذلك يعني أن النماذج هي أنماط من العلاقات التي وضِعَت لتوضيح جزء محدود من الواقع، والتي وجد أنها مفيدة وترشدنا في دراسة هذا الواقع وفهمه. والهدف الرئيس من توفير هذه النماذج هو تقديم بعض الأدوات أو الوسائل التي يمكن أن تسهل عملية الفهم لدى الباحث الاجتماعيّ للظواهر والمشكلات التي يتعامل معها، وتقديم التحليل والتفسير الصحيح لها.

أمَّا بالنسبة لمصطلح البراديغم أو الباراديغم Paradigm فإنه عند البحث عن هذا المصطلح في القواميس- سواء التي باللغة العربية أو الإنجليزية- سنجد أن معناها نموذج أو مثال. إلا أن هذا المصطلح استُخدم بمعنى جديد منذ ستينيات القرن العشرين عندما استخدم المؤرخ العلمي توماس كونز كلمة البراديغم بمعنى الإطار النظري" للفرع المعرفي في كتابة The Structure of Scientific Revolutions بحيث تشير إلى الإطار الفلسفيّ أو النظريّ للبحث العلمي الذي يتم من خلاله صياغة الفروض والقوانين والتجارب العلمية التي تدعمها. ومن هنا أصبح مفهوم كلمة البراديغم في السياق العلمي يمثل طريقة محددة في رؤية الطبيعة أو الواقع. فالبراديغم الفيزيائي الذي جاءت به فيزياء نيوتن أعاد تصورنا ورؤيتنا للكون عمّا كانت عليه قبل نيوتن. ومن ثم جاءت نظرية آينشتاين النسبية ومعادلاته الشهيرة؛ لتنقلنا إلى رؤية أُخرى للعالم من حولنا، تختلف عن رؤية نيوتن.

وقد أثارت رؤى كونز العقول والأفكار، وكان كتابه بمثابة ثورة في مجال تأريخ العلوم وفلسفتها، انبثق عنها نظريات وتطبيقات مهمة؛ ومن ثَمَّ شاع استخدام كلمة البراديغم في مختلف المجالات العلمية والأدبية، وصار يُنظرُ إلى البحث والتطوير والاكتشاف على أنه محاولة لكسر البراديغم - أي كسْر القواعد أو الأنماط أو المألوف من طرق التفكير في عالمنا - وبالتالي صارت تتخذ معنى يدل بصورة أكثر عمومية (من التعريف العلمي) على "النظرة السائدة للأشياء" A Prevailing View of things .

أهمية النظرية والنماذج النظرية في علم الاجتماع:

هل فقد علم الاجتماع مجْده وأهميته، أم أنه مازال قادراً على إعطائنا إجابات وصوراً واضحة ودقيقة عن واقعنا الاجتماعيّ بكل تناقضاته؟ وإذا كان البعض يذهب إلى أن ساعة مجد وعظمة السوسيولوجيا قد ولت، فإنه في نفس الوقت تظهر الحاجة الملحة إلى هذا العلم، فهل هذه الحالة هي ما يمكن أن نطلق عليها المفارقة السوسيولوجية؟

إن الانعكاسات السلبية التي تركتها وتتركها العولمة Globalization، والرأسمالية المتوحشة Super-Capitalism، والتغيرات التي عرفتها الأسرة والتي أدت في النهاية إلى النظر إلى الأسر على أنها جزرٌ منفصلة، والتأثير السلبي والمدمر الذي تركه التطور المذهل لوسائل الإعلام والاتصال وخاصة وسائل التواصل الاجتماعيّ Social Media (وخاصة الفيس بوك والواتس آب وتوتير ...) على المجتمع وأفراده حيث لم ينجُ أحد من ذلك، والمشكلات المستجدة (مثل: مشكلات تلوث البيئة ومشكلات الأقليات ومشكلات الحروب الأهلية والمشكلات المترتبة علي جائحة فيروس كورونا...) كل ذلك أدى إلى أن النظرية السوسيولوجية أصبحت محل بحث وطلب من قبل العديد من الهيئات السياسية والعامة وهذا من أجل تسيير ما هو اجتماعي وترميم هذه الانعكاسات والآثار التي مست البناء الاجتماعيّ في كل اتجاهاته وأبعاده، وتخفيف حدة المشكلات والمعاناة يكون من خلال الفهم الصحيح للواقع الاجتماعيّ، بل إنه-علم الاجتماع - قادرٌ على مساعدة كلٍّ من المؤسسات والجماعات والأفراد على تسيير شؤونهم اليومية. وهكذا فإن علم الاجتماع لم يعد مطالباً أن يثبت "علميته" ووظيفته وأهميته إذا نجح في هذه المهمة، وبالتالي فإن "المفارقة السويسيولوجية" لم يعد لها معنى هنا.

ومع هذه القتامة لواقع النظرية الاجتماعيّة فإن المستقبل يبدو مبشراً ومزدهراً، فهل نعيش فعلاً عصر علم الاجتماع؟ رغم أن «آلان توريـن» بشّر بنهاية المجتمع في كتابه بنفس الاسم La fin des Société's والمنشور في العام ٢٠١٣ (Tourain 2013,) وبعد أن أعلن "ادغار موران" من قبل عن "النموذج المفقود" The Lost Paradigm : 1973 Morin حيث لم يقتنع بكل "النماذج" الموجودة في علم الاجتماع ويدعو إلى "نموذج" آخر، يقوم على وقف التعارض بين الطبيعة والثقافة، فمفتاح الثقافة يوجد في طبيعتنا ومفتاح طبيعتنا هو في ثقافتنا. وبعد أن عجزت النماذج المتعددة منذ ولادة علم الاجتماع عن تحقيق فهم أعمق للإنسان وإرساء شبكة العلاقات الاجتماعيّة والقيم الاجتماعيّة، فقد أدى

كل ذلــك بآلان توريــن إلى تعميق هذا الطرح واقــترح "نموذجاً" جديداً لفهم عالم اليوم (Tourain 2005).

إنه نموذج جديد يطرح فيه آلان تورين رؤية جديدة يرى من خلالها أن النموذج الذي ساد منذ بداية الرأسمالية في القرن السادس عشر كان يعبر عنه بمصطلحات سياســية، واحتل السياسيُّ الصدارة في إلخطاب الاجتماعــيّ والاقتصاديّ والســياسيّ: الفوضى، النِّظام، الســلم، الحرب، السلطة، الدولة، الملك، الأمة، الجمهورية، الشعب، والثــورة، وتبع هذا النموذج نموذجا آخــراً اتخذ من المصطلحات الاجتماعيّــة والاقتصاديــة أساســاً لخطابه: الطبقــات، الصراع الطبقــي، الثروة البرجوازية، البروليتاريــا، النقابات، الإضرابات، التدرج والحراك الاجتماعيّ، اللا مساواة وإعادة التوزيع، ...إلخ.

كانت هذه كما يقول تورين مقولاتنا المفضلة والأكثر استعمالاً في تحاليلنا، هذا النموذج وصل إلى نهايته الآن فاسحاً المجال لنموذج آخــر جديد، ســوف يتخذ من الجانب الثقافي والفردانية الأســاس في خطابه. فنحن نشــهد دخــول مرحلة جديــدة عنوانها الثقافي والحقوق الثقافية مرحلة تتميز بشــكل واضح بظهور الفردانية، وهنا نستطيع القول: إنه في مجال علم الاجتماع ظهرت العديد من النماذج النظرية التي تعكس وجهات نظر مختلفة، وتعكس رؤى متباينة، وهذا هو حال النموذج النظري.

ففــي مجــال العلــوم الاجتماعيّــة يســتعمل النمــوذج النظري "البراديغم" لوصف مجموع التجارب، والأفكار والقيم التي تؤثر في الطريقــة التي يدرك بها الفــرد الواقع ويتصرف من خلال هذا الإدراك، حيث سيســمح هذا النسق من "التمثلات" بوصف البيئة التي يعيش فيها، ومن خلالها يقيم عمليات تواصل. وهو في نهاية الأمر محاولة لفهم الواقع أو التنبؤ به أو البيئة التي يعيش فيها. وعلى ســبيل المثال ظهــرت العديد من النمــاذج النظرية في مجال العلوم الاجتماعيّة، يمكن ذِكْر أهمها في هذا المجال:

١- نمــوذج ولادة الرأســمالية Capitalist Birth لماكــس فيبر Max Weber: حيث البرجوازي يتحول إلى مقاول عندما يرى في الثروة والرأسمال استثمار منتج وليس مضاربة.

٢- نمــوذج التنشــئة المســبقة Pre Socialization Model لروبرت ميرتون Robert Merton: الأفراد وفق هذا النموذج يتطلعــون لأخذ قيم وســلوكيات الجماعــات التي يتطلعون للوصول إليها أكثر من الجماعات التي ينتمون إليها فعلياً.

٣- نمــوذج الإحبــاط النفــسي Psychological frustration model لصامويل ستوفر Samuel Stover: إذا كانت القيم الاجتماعيّــة واضحة ومحددة ومدركة عــلى أنها ثابتة فإن الأفــراد يحددون طموحاتهــم بالنظر إلى هــذه القيم، ولكن إذا كانت هذه القيم غير واضحة وغير مســتقرة فإن الأفراد يتطلعون إلى واقع يتجاوز إمكانية تحقيقه وعندها يشعرون بالإحباط.

٤- نمــوذج الأسرة النوويــة The nuclear family model لتالكوتــب ارســونز Talcott Parsons: تطــوُّر المجتمــع الصناعي يفرض حراكاً للســكان، وهذا ما يؤدي إلى استقلال الأبناء، وهو ما يفضي في النهاية إلى انتشار الأسرة النووية.

٥- نمــوذج الفعل الجماعــي The collective action mode لمانكور اولسون Mankur Olson: الفرد ليس له مصلحة في مساندة تنظيم معين يملك الثروات والخدمات الجماعية؛ لأنه سيستفيد بشكل أو بآخر. ولكنه يشارك فعلاً عندما يعتقد أن هذا التنظيم يحقق له مصالح فردية.

٦- نموذج الرأسمال الاجتماعيّ The Social Capital Model لبيير بورديــو Pierre Purdue: إن الطبقــات العليا لديهم الوســائل الثقافية والتحفيز التي تســمح لهم الاستفادة من المدرسة أكثر من أبناء الطبقات الدنيا، وهكذا فإن اللامساواة في المدرسة تحافظ على اللامساواة في رأس المال الاجتماعيّ.

٧- نموذج صراع الجماعــات The Groups Conflict Model لرالــف داهرنــدورف Ralph Dahrendorf: تنوع المجتمع يفــضي إلى تنــوع الجماعات وتخصص في المصالــح، فهذا ما يؤدي في النهاية إلى تنوع الصراعات.

٨- نموذج الديموقراطية The Democracy model اليكسس دي توكفيــل Alexis de Tocqueville: المســاواة هي نتيجة حتميــة للمجتمعات الديموقراطية، فكلما تطورت المســاواة تصبح اللامســاواة صادمــة، ويؤدي في الأخــير إلى ضرورة تحقيق المساواة.

٩- نمــوذج شــيكاغو The Chicago Model لروبــرت بارك وإرنست برغس Robert Park and Ernst Burgess: سكان المــدن يتوزعون عبر مناطــق مركزيــة، وتمركزهم يختلف باختــلاف الجماعات حيث يكون نتيجــة لأصولهم الإثنية أو الاجتماعيّة والاقتصادية.

١٠- نموذج الصراع الطبقي The class struggle model لكارل ماركس: Karl Marx إنه نموذج يري أن الطبقات الاجتماعيّة هي دوماً في صراع حتى يصبح المجتمع بدون طبقات.

١١- نموذج منطــق العلامات الاجتماعيّــة The Social Marks Logic Model لجــان بودريــار Jean Baudrillard في المجتمعات الغنية. فالمستهلك يتحصل على علامات اجتماعية في الوقت نفســه الذي يشتري فيه السلع والخدمات. فمنطق العلامــات يعوض منطق الحاجة والفرد يطلب اختيارات غير ضرورية (١٩٩١: ٢٦٤)، Mendras. Forse .

وكمثال على هذه النمــاذج يمكن تقديم شرح مختصر لنموذج أو مدرسة شيكاغو؛ نظرا لارتباطه بموضوع البحث الحالي "العلاقة بين الفعل والبنية" كالتالي:

نموذج أو مدرسة شــيكاغو أو التي توصف أحيانا بأنها المدرسة البيئيــة أول هيئة رســمية ظهرت خلال عشرينيــات وثلاثينيات القرن العشرين متخصصة في البحث في علم الاجتماع الحضري من خلال الجمع بين العمل الميداني النظري والإثنوغرافي في شيكاغو. أيضا يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى قسم علم الاجتماع بجامعة شــيكاغو في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فقد نشــأت «مدرسة شــيكاغو» التي انتهج أعضاؤها منهجاً علميا، يســتخدمون فيه الرمزية التفاعلية بالاقتران مع البحث الميداني (التي يشــار إليها اليــوم غالبًا بالإثنوغرافيا)، ومن أبرز الباحثين في أول مدرســة في

شيكاغو نيلس أندرسون، وإرنستبورغيس، وروث شونيل كافان، وإدوارد فرانكلـن فريزر، وإيفريتهيـوز، ورودريك دي ماكنزي، وجورج هيربرت ميد، وروبرت بارك، وولتر سي ريكليس، وإدوين ساذرلاند، ووي توماس، فريدريك ثراشر، لويس ويرث، وفلوريان زنانيكي، جين أدامز،...

وتشـتهر مدرسـة شـيكاغو بالعمل على علم الاجتماع الحضريِّ وعلـم الاجتماع الجنائـيّ وبتطوير النهج التفاعـليّ الرمزيّ، ولا سـيَّما من خلال عمل هربرتبلومر. وقد ركز على السلوك البشري الذي تشـكله البنى الاجتماعيّة والعوامـل البيئية المحيطة، وليس الخصائص الجينية والشخصية فقط.

ويعتقد أعضاء المدرسة أن البيئة الطبيعية، التي يسكنها المجتمع، هي عامل رئيسي في تشـكيل السـلوك البـشريّ، وأن المدينة تعمل بمثابـة مختبر مصغـر حيث يتم إطلاق جميع المشـاعر، وجميع الطاقات البشرية (عودة، ٢٠٠٠: ٧٠؛ الجوهري، ٢٠٠٠: ١٢٣؛ عبد الله ومحمود، ٢٠٢٠: ١٩٦).

إن كثرة النماذج السـابق الإشـارة إليها وتعددهـا تعكس تباين الرؤى والتصورات للواقع الذي نعيشـه، وهـي تعكس من جهة ثانيـة صعوبـة الواقع وتعقـده، ومع ذلك نحـن محتاجون لهذا التنـوع والتعدد؛ لأنه يعتبر غنـى للنظريـة الاجتماعيّة وطريقًا صحيحًا لتفسير واقعنا الاجتماعيّ المعقد وفهْمه.

لماذا نحن بحاجه إلى نظرية؟

إن النظرية ليست مجرد تصورات؛ لأن كثيرًا منها (أي التصورات) غـير صحيحة أو غامضه ولا يمكنهـا أن تفسر لنا واقعنا المعقد، فالنظرية تختلـف عن هذه التصورات إذ إنهـا أكثر تنظيماً؛ لأن هدفهـا الأسـاس هو وصف الواقع وتفسـير مختلـف الظواهر الاجتماعيّـة التي يفرزها المجتمع؛ ولذلك فـإن بناء النظرية هو عمليـة صعبة ومعقـدة؛ لأنها تتطلـب تكوينًا خاصًّـا وقراءات متعددةً للواقع الذي نعيشـه، ومع هـذه الصعوبة إلا أنها مفيدة جداً؛ لأنها تتيح لنا أدوات التحليل والفهم والتفسـير لهذا الواقع الذي نعيشه.

إن دراسة النظرية الموجودة تعلمنا أن نفكر وألا نأخذ آراءنا كأنها حقائـق، إنها تفرض علينا أن نجعل مسـافة نقديـة، وأن نحذر من المظاهر، كما أنها تسـمح لنا أن نكشـف معاني الأحداث التي تتجاوز الانطباعات الذاتية والتي تتجاوز وجهات النظر الصحفية.

إن تعلم النظرية ليس معناه تغيير العالم، ولكنها تسـمح لنا بأن نـرى هذا العالم مـن زاوية أُخرى وفهم أفضـل لمختلف الظواهر الاجتماعيّة وللفعل الاجتماعيّ.

ليسـت هناك نماذج نظرية ولا نظريات متفـق عليها من جميع الأطـراف، إن حال النظرية يمكن تشـبيهه بمجموعة من الأفراد يرتدون نظارات بألوان مختلفة (حمراء، صفراء، سـوداء...إلخ) فكلٌّ منهم يرى الواقع حسـب لون النظـارة التي يرتديها مع أن الواقع هو نفسـه. لهذا السـبب، تعددت النمـاذج والنظريات في مجال علم الاجتماع وستسـتمر النظرية الاجتماعيّة في التغير ما دمنا نعيش واقعاً متغيراً وغير ثابت وخاصة في السنوات الأخيرة، حيث أصبحت وتـيرة التغير سريعة مع العولمـة والتكنولوجيات الحديثة لوسائل الإعلام والاتصال والتواصل الاجتماعيّ.

إن النظريـة أو عملية التنظـير مهمة جدًّا في علم الاجتماع، إلا أنه في مراحـل تطور علم الاجتماع (القرن العشرون) تم التركيز أكثر على قضايا منهجية، مثل المناهج، والقياس الكميّ.. إلخ؛ لذلك فإن النظرية لم تحقق تقدماً مماثلا (سـويدبيرغ ،٢٠١٧: ١٦٦)، رغم بعض المحـاولات الجدية. ومع هذا فقد ظهـرت نظريات عدة في مجال علم الاجتماع أسهمت في تعزيز أهميته وضرورته لمجتمعاتنا المعاصرة، بينما في عالمنا العربي لم يتمكن علم الاجتماع من إثبات وجوده كعلم مسـتقل بذاته يمكن أن يقـدم لنا الإضافة المرجوة لفهـم مجتمعنا الذي نعيشـه، ذلـك المجتمع المـليء بالتناقضات والظواهر السلبية المعقدة التي تعكس حالة التخلف الفكريّ الذي تعيشه مجتمعاتنا.

١- النظريـة الاجتماعيّـة من نمـاذج الحتميـة إلى نماذج الاستقلالية

إن واقع النظرية السوسـيولوجية حاليـاً كما هي مطروحة على الساحة الفكرية يمكن تصنيفها إلى ثلاثة اتجاهات واضحة:

الاتجاه الأول: يمكن أن نطلق عليه اتجاه الحتمية Determinism حيـث ينضوي تحت هذا الاتجاه كثير من علمـاء الاجتماع الذين يرجعون الفعـل الاجتماعيّ للفرد إلى حتميـات متعددة قد تكون اجتماعية، ونجد ذلك عند دوركايم حيث يولد الفرد في مجتمع قائم على قواعد وأسـس موجودة تقوم بضبط الفعل والشخصية، كما أن الفـرد هو مجرد عنصر واحد ضمن محصلة كبيرة من الأفراد والعلاقات التي تشكل المجتمع (جيدنز، ١٩٧٩). أو اقتصادية كما نجد ذلك عند النظرية الماركسـية أو حتميـة ثقافية كما هو عند النظرية الوظيفية كما صاغها بارسونز، إن الفرد في هذا النموذج ليـس حرًّا بل هو تابع لبنية اجتماعية، وبناء على ذلك فإن الواقع الاجتماعيّ هنا" مُعطى" والفرد تابع لهذه البنية أو تلك.

أمَّـا الاتجاه الثانـي: فهو الاتجـاه الذي يتخذ مـن حرية الفاعل واستقلاليته The freedom and independence of the actor أساسـاً للتحليل، فالفرد هنا حرٌّ في اتخـاذه للفعل، وهو عقلاني، ويتخذ الفعل حسب حسابات خاصة به، ونجد هذا الطرح واضحاً في اتجاهات الفعل عند آلان تورين (Tourain,1965) أو الفردانية المنهجيـة عند ريمون بـودون (Boudon, 1977: 2010) ونماذج الاختيار العقلاني أو العقلاني المحدود، والتحليل الاستراتيجي عند ميشال كروزيه (Crozier, 1977) فينظر إلى الفرد هنا على أنه حرٌّ ومستقل في اختياره للفعل.

أمَّا الاتجاه الثالث: الذي يقع بين هذين الاتجاهين، فيمكن أن نطلق عليه اتجاه البنيوية التشـكلية Structuralism constructivist ويقع تحت هذا الاتجاه الاتجاهات التفاعلية Internationalism (التفاعليـة الرمزيـة، الفينومينولوجيـا، الاثنوميثودولوجـي) والانعكاسـية الاجتماعيّة لأنتونـي جيدنز. والبنيويـة الجنينية لبورديـو وبنيوية التشـكل الحضاري ل نوربـرت إلياس. إن كل هذه النماذج النظرية ترى أن الفعل الذي يقوم به الفاعل محكوم

بنية اجتماعية معينة وفي الوقت نفسه يوجد للفاعل هامش من الحرية، تتيح له الاختيار، فالفعل هنا ليس حتميًّا وليس حرًّا، فهو في إطار تشكُّل دائم من خلال التفاعلات اليومية: اللغة، الرموز، العادات والتقاليد ...إلخ.

في نظريته Structuration theory يحاول جيدنز أن يجيب عن التساؤل المشروع: هل القوى الاجتماعيّة Social Forces هي من تشكل الواقع الاجتماعيّ أم أن الفرد هو من يشكله؟ حيث يرى أن الأفراد يقومون بإنتاج – من خلال وجودهم كفاعلين في المجتمع – القيم والمعايير والنظم الاجتماعيّة، لكنهم – في نفس الوقت – يتصرفون ويتفاعلون ويتم تقييد أفعالهم بهذه القيم. إنَّ جيدنز يحاول التوفيق بين "الفعل" و"البناء" حيث يكون الفعل هو ممارسة السلوك، في حين أن البناء هو منظومة القواعد والنظم التي نتج عنها هذا السلوك أو ذاك، وهنا تبرز مهارة جيدنز في تجاوز هذه الثنائية التي قيدت الدراسات الاجتماعيّة حيث يفترض أن الأبنية تتجاوز حدود الزمان والمكان (time & space) وهذا يشكل بُعداً مختلفاًعن بنائية "ليفاي شتراوس" في اللغة حيث يتم إعادة إنتاج الأبنية بشكلٍ متزامنٍ مع تطبيقها (العنزي، ٢٠٠٧٤٠ :).

إن مصطلح الانعكاسية كما صاغه أنتوني جيدنز (٢٠٠٠) يعني أننا نعيش في مجتمع لا تحكمه القوانين الطبيعية، كل قرار نتخذه مثل اختيار الملابس، اختيار بدله، قميص يعتبر فعلاً روتينيًّا وعاديًّا، ولكن لا نستطيع أن نتخذه أوتوماتيكيًّا، إنه يرجع إلى عمليةٍ ديناميةٍ لبناء الذات، إن فعل اللباس يتطلب النظر إلى من حولنا، من جهةٍ معرفة طريقة اللباس، والاختيار، وكل هذا يعتبر جزءًا من انعكاسية الذات في المجتمع المعاصر.

وحول الفجوة الظاهرة بين البنية والفعل يرى جيدنز أنه من الضروري الإقرار بأننا نحن الذين ننشط في صياغة البنية الاجتماعيّة وإعادة صياغتها في آن معاً من خلال التفكير في السلوك البشري(جيدنز،٢٠٠٠). أمَّا البنيوية الجنينية لبورديو، فيمكن تلخيصها في هاتين المقولتين: "الأبنية البانية" و"الأبنية المبنية"، فالفرد محكوم في الوقت نفسه ببنيةٍ اجتماعية طبقية ومؤسساتٍ تعليميةٍ، تشجع التفاوت الاجتماعيّ وبنية تسمح للفرد بهامش من الاستقلالية في حقل معين، إنَّها تسمح له برسم استراتيجية معينة، وهذه البنية هي التي يسميها بورديو البنية البانية، حيث لم يغفل بيرديو تأثير العوامل الخارجية على الخصائص الفردية، حيث يتفق كل من بورديو وجيدنز على أهمية الفعل «action" في تشكيل البناء "structure" وفي الوقت نفسه يرى أهميةً للأبنية في تشكيل الفعل والممارسة (1972 ,Bourdieu).

لقد اختلفت النظريات الاجتماعيّة في تفسيرها للواقع الاجتماعيّ إلا أنها تكاد تجمع كلها على أن الواقع الاجتماعيّ قائم بذاته وبصوره مستقلة عن الأفراد المنتجين له (جيدنز، ٢٠٠٥). فالمدرسة التصورية مثلاً ترى بأن "الواقع" الاجتماعيّ يكونه الأفراد عبر التفاعل الاجتماعيّ؛ ولذلك يجب عند محاولة تفسير هذا الواقع ألا نغفل العمليات التي تمت لتشكيل هذا "الواقع"، وهنا نستذكر العمل المتميز لبيتر بيرجر وتوماس لوكمان (١٩٦٦) حيث افترضا أنَّ ما يمكن اعتباره "حقيقة" نتيجة للواقع الاجتماعيّ هو تصور يكونه الفرد لحياته وثقافته وواقعه، وقد يختلف أبناء الثقافة الواحدة فيما قد يمكن اعتباره "حقيقة" لواقعهم الاجتماعيّ.

ويمكن أيضا إضافة عالم الاجتماع الألماني الذي تم الرجوع إليه مؤخرا "نوربرت الياس" Elias. N (١٨٩٧-١٩٩٠) الذي أوضح من خلال مؤلفاته التي تم اكتشاف أهميتها في العقود الأخيرة من القرن الماضي أنه إذا كان الإنسان في أساسه اجتماعيًّا، فإن المجتمع في حد ذاته مدركٌ، من خلال التفاعل والاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع. ويوضح "الياس" في أحد مؤلفاته أن التاريخ هو دوما تاريخ مجتمع، ولكنه دائمًا تاريخ مجتمع أفراد، وبالتالي فإن الياس يرفض المواجهة بين الفرد والمجتمع، فعملية الفردنة تاريخيًّا لم تنفصل عن عملية التنشئة الاجتماعيّة.

لقد كان مصطلح الاعتماد المتبادل Interdependence في قلب النموذج النظريّ ل "الياس" وهو يشبه هذه العملية، مثل لعبة الشطرنج، فكل فعلٍ منجزٍ نسبيًّا هو فعل مستقل على رقعة الشطرنج الاجتماعيّة يستدعي بدون توقف رد فعل لفرد آخر يحد من حرية فِعل اللاعب الأول (فعلى رقعة الشطرنج الاجتماعيّة العملية تعني في الحقيقة كثيرًا من ردود الأفعال من قِبل أفراد عديدين (Elias ,1991).

إن الفعل هنا (البنيوية التشكلية Structuralism constructivist) هو في مرحلة تشكُّل دائم، فإذا كان الفرد تابعًا لبنية مَّا فإنه في الوقت نفسه يسهم في تشكل البنية الاجتماعيّة، وبالنسبة لمنظِّري نظرية الفعل الاجتماعيّ فإن المجتمعات هي في النهاية نتيجة التفاعل الإنساني، وليست سببه (جونز، ٢٠١٠: ٥٩).

وللتوضيح أكثر يمكننا إدراج الشكل التالي:

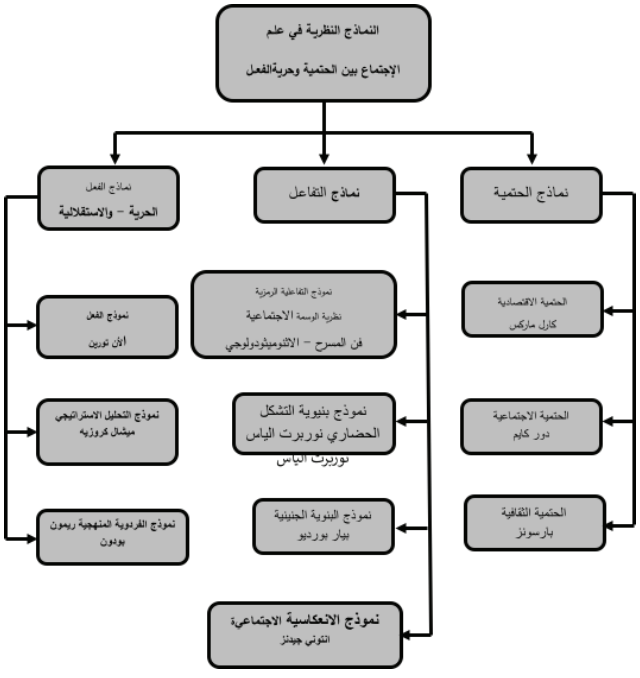

شكل (١)

الفعل الاجتماعيّ Social Action كأحد الموضوعات الرئيسية لعلم الاجتماع كما يري جورج ميد George Mead (١٩٣٤) في كتابه الذات والمجتمع Self and Society هو كل سلوك يتضمن تقاربا مع الآخرين وأن يكون موضوعه اجتماعيًّا بالضرورة. ويعــرف محمد عاطف غيث أيضا وآخــرون الفعل الاجتماعيّ بأنه أيُّ نشــاط منظم وموجه نحو هدفٍ ما يصدر من شخص أو مجموعــة أشــخاص (غيــث وآخــرون، ١٩٧٩: ٤١٠). وفي الســياق نفســه عرف مدحت أبو النصر الفعل الاجتماعيّ بأنه أي ممارســة ســلوكية تتجه نحو تحقيق هدف معين في ضوء قاعدة ســلوكيةٍ يقرها المجتمع وباســتخدام وسيلة مشروعة (أبو النصر، ٢٠١٦: ١٦).

وحــدد محمد عاطف غيث وآخرون ثلاثة عناصر رئيســية للفعل الاجتماعيّ هي كالتالي:

١- توقع الاتجاهات.
٢- النشاط المنظم والموجه وفقا لتعريف الدور، من خلال المعايير الاجتماعيّة وتوقعات الآخرين
٣- الإنجاز الرمزي للهدف (غيث وآخرون، ١٩٧٩: ٤١٠).

وهــذا الموضوع (الفعل الاجتماعيّ) في الحقيقة الذي تم إحياؤه في العقود الأخيرة والدوافع التــي تقف وراء اختيار الفاعل لفعلٍ مَّا ترجع بدايته إلى «دوركايم» ومن بعده ماكس فيبر فهو عند الأول يخضــع لحتمية خارجيةٍ بينما هو عنــد فيبر داخليٌّ يحدده المعنى الذي يضفيــه الفاعل على فِعله، وصولا إلى «بارســونز» إذ الفعل عنده داخليٌّ تُحرِّكه القيم وخارجي تحدده البيئة التي يعيش فيها الفاعل التي تضبطه وفق أهداف النسق (زايد، ١٩٨١).

فعلي ســبيل المثال حدد ماكس فيــبر M. Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع في تفسير الفعل الاجتماعيّ بهدف الوصــول إلى معرفة أســبابه ونتائجه. وعرف في ضــوء ذلك علم الاجتماع بأنه العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم الفعل الاجتماعيّ وتفسيره، وذلك من أجل الوصول إلى تفسير سببيٍّ له ولنتائجه.

ومهمــا كان الأمر فــإن علماء علم الاجتمــاع اتخذوا اتجاهات عديــدة متعارضة في بعض الأحيان ومتشــابهة أحيانــاً أُخَر، فقد نظر إلى الفاعل على أنه يخضع لمنطق اقتصاديٍّ يخضع لحســابات الفاعل أو يخضع لدوافع ذاتية أو هو حرٌّ تماماً، ينشــد الحرية أو في أحيان أُخَر يخضع لقواعد الحياة اليومية. والشكل التالي يوضح هــذه الوضعية حول نظريات الفعل كما هــي مطروحة في الفكر السوسيولوجي الحديث.

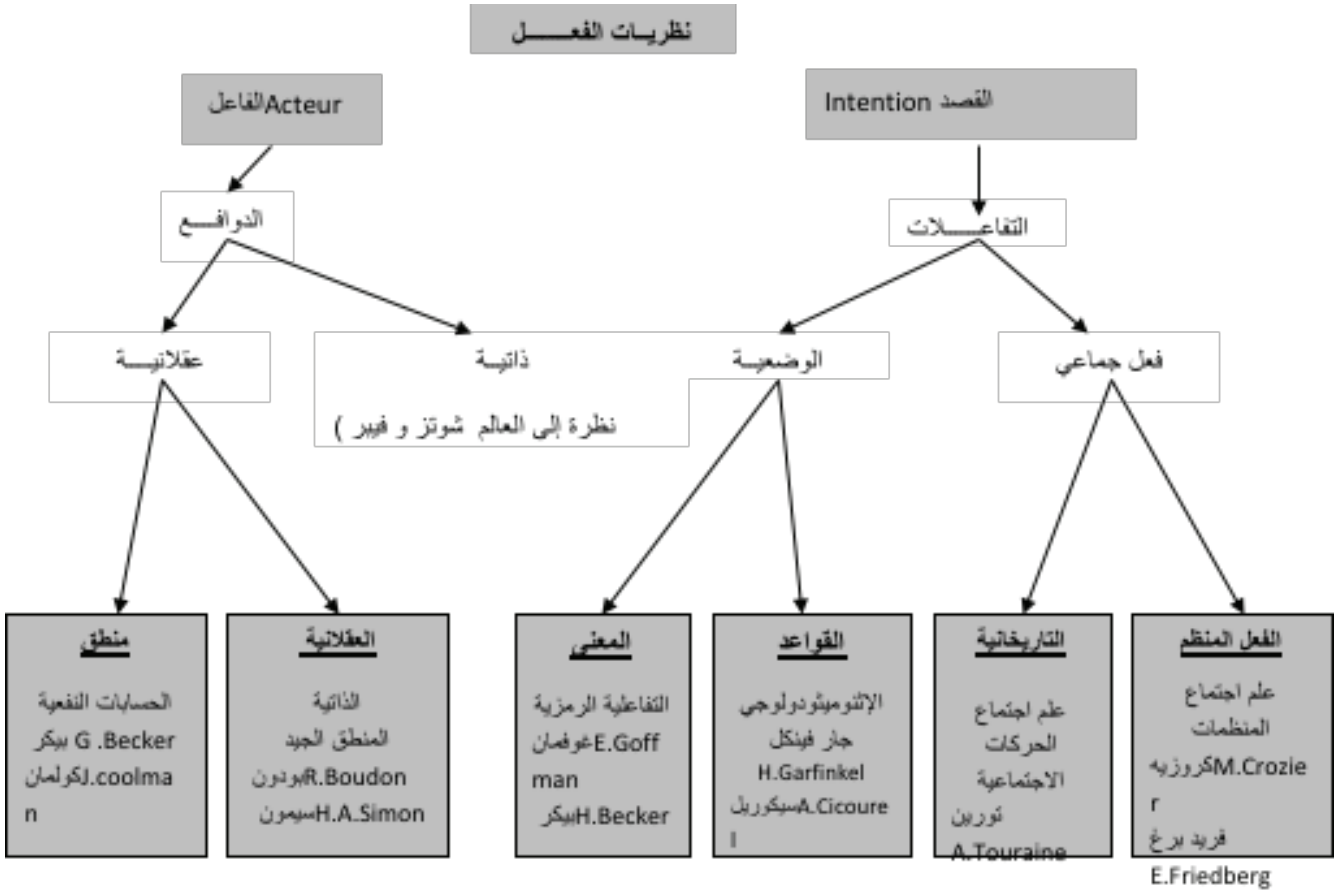

شكل (٢)

المصدر: J.M.Berthelot, Les vertus De L›incertitude, Puf, 1996

المصدر: Berthelot j M :1996

لقد حاول فيليب كوركوف (Corcuff, 1995) أن يقدم لنا صورة عمَّا أسماه علوم الاجتماع الجديدة منطلِقا من الثنائيات التي حسب رأيه حكمت مسيرة علم الاجتماع، وهي ثنائيات موروثة من الفلسفة: المثالية والمادية، الذات والموضوع، الجماعي والفردي، الفردانية والشمولية...إلخ. ولقد حاول أن يقدم في كتابه علوم الاجتماع الجديدة Les Nouvelles Sociologies (١٩٩٥) إجابات عن بعض الأسئلة التي في الحقيقة شغلت علماء علم الاجتماع على مختلف توجهاتهم الأيديولوجية والمعرفية، من بينها: كيف يمكن الانتقال من الأبنية الاجتماعيّة إلى التفاعلات وجهاً لوجه وبالعكس؟ وكيف يمكن تحليل تشكل الجماعات والفئات؟ وكيف يمكن إدراك الأشخاص الفردانيين والجماعيين في مجتمعاتنا الفردانية وفهمهم ؟

لقد حاول كوركوف من خلال هذا العمل الجاد التطرق إلى أهم الاتجاهات النظرية التي برزت على الساحة الفكرية خاصة في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي وإن كان التركيز على علماء الاجتماع الفرنسي إلا أن ذلك لم يمنعه من التطرق إلى مفكرين بارزين في مجال النظرية السوسيولوجية مثل: نوربرت الياس، وأنتوني جيدنز، وماري دوغلاس واليزاندروبيزورنو. وينتهي الكتاب إلى نتيجة غير واضحة، فهو من جهة يذكر أن هناك أسبابًا تدعو إلى التفاؤل حول مستقبل النظرية في علم الاجتماع، خاصةً أن علم الاجتماع أصبح أكثر احترافيةً من الماضي؛ لتطرقه لميادين تجريبية واللجوء إلى مناهج مضبوطة، ومن جهة أُخرى هناك بواعث للقلق، ذلك أن للاحتراف بعض الجوانب السلبية، وهناك جوانب أُخَر مقلقة، تتعلق بعلاقته بالسياسة حيث أدت بعض العوامل مثل الاحتراف والطوباويات السياسية واتساع الرقمنة التي يحتلها الإعلام في الحياة العامة أن تقود علماء الاجتماع علماء إلى الانكفاء على عالم الجامعة والبحث بعيداً عن النقاشات التي تحرك المدينة (Corcuff. 1995 :120-113).

ومهما كان الأمر فنحن نعيش مرحلة جديدة شهدت وتشهد تغيرات عميقة في شتى مجالات الحياة وفي بعض الاحيان لا ندرك جيداً هذه الأحداث التي تتشكل من حولنا ومقدار التغيرات التي ستحدثها، وربما أصاب ماركس عندما أعلن «الرجال يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه حسبما يريدون»

"Men make their own history, but they do not make it as they please"

إن هذه الحالة التي وصلت إليها النظرية السوسيولوجية تتطلب ومن دون شكٍّ إعادة النظر في المقولات النظرية والمداخل المنهجية التي سادت سابقاً، فإنسان العولمة وما بعد الحداثة ومجتمع الشبكات يتطلب من علماء الاجتماع مراجعة أطروحاتهم بما يتوافق مع هذه التغيرات التي طالت الفرد والمجتمع.

٢ - من «ما بعد الحداثة» إلى «عودة الفاعل»

إن ما بعد الحداثة وخطابها القوي والمدوي قد أسهم بشكل أو بآخر ليس فقط في تفجير الحداثة بل أيضاً في تفجير علم الاجتماع وإعادة طرح العلاقة من جديد بين الفرد والمجتمع، مثلما فعلت الحداثة التي اقترن ظهور علم الاجتماع بها من قبل. إن ما بعد الحداثة تيارٌ لا يقوم على التشكيك وحسب، بل على رفض المبادئ الأساسية التي قامت عليها الحداثة، فهذا التيار جاء ليترجم ويعكس تلك التغيرات العميقة التي طالت المجتمعات الغربية، وهذا منذ الستينات، حيث بدا واضحاً أن العالم تغير وأن المبادئ التي قامت عليها الحداثة لم تعد قادرةً على مسايرة التطورات والتغيرات العميقة التي مست بنية المجتمعات الغربية وأبنيتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعيّة ونسقها الفكري أيضاً.

إن الحداثة أو مشروع الحداثة قام على أسس وعلى مبادئ رئيسية عكست القطيعة التي أحدثها الفكر الغربي في ذلك الوقت مع ما سبق من أفكار وممارسات، وأعادت للعقل دوره الحقيقي وللفرد مكانه الطبيعي وللمجتمع أهميته في تحقيق التضامن والنِّظام، وقد عكست فلسفة التنوير ذلك كما صورها فلاسفة مثل روسو ومونتسكيو وفولتير وكوندرسيه وكانط وديكارت وهيجل. إذن الفكر الحداثي الغربي قام على أفكار تُرْجِمَت على أرض الواقع، ومن أهم هذه المبادئ أو الأسس يمكن الإشارة إلى: الفردية، العقلانية، الإيمان، حتمية التاريخ، وأنه يسير في خط مستقيم ولا يتراجع إلى الوراء، والإيمان بالعلوم الطبيعية، والتمييز المطلق بين الذات والموضوع...

ولكن مفكري ما بعد الحداثة لا يعترفون بهذه المبادئ ويشككون في قدرتها الآن على تحقيق سعادة الفرد وحريته، ولهذا فهم ينادون بأفكارٍ تناقضها، وكما يقول فرانسوا ليوتار أحد أبرز دعاتها «إن المعرفة تغير موقعها في الوقت نفسه الذي تدخل فيه المجتمعات إلى عصر ما بعد الصناعي والثقافات إلى مرحلة الحداثة، وهذا الانتقال قد بدا على الأقل منذ نهاية إلخمسينات (أفاية، ١٩٩٥: ١١٩).

إن التفكير ما بعد الحداثي كان في حقيقة الأمر مصاحباً ومتوازياً مع الأزمة العميقة التي وصل إليها مشروع علم الاجتماع الكلاسيكي أو الحداثة وخاصة مع الأزمة البنيوية المؤسساتية التي طالت كل المؤسسات، ويتماشى هذا مع فكرة نهاية المجتمع التي درست هنا وهناك وخاصة مع سلسلة كتابات «جورج بالنديه» والتي نُشِرَت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي (Martucceli, 1999).

ولقد نتج عن هذا النقد وهذا التشكيك في الحداثة أسسُها التي قامت عليها والمآل الذي وصلت إليه ووصل إليه المجتمع الذي دخل إلى مرحلة من النمطية والرتابة ضاع فيها الإنسان وضاعت فيها حريته ومعنى الحياة، أطلق عليها جان بودريار «فقدان للمعنى المعمم perte de sens généralisée» بل ذهب البعض إلى تلخيص حياة الإنسان في ظل هذه الظروف في العبارات التالية: النوم، المترو، العمل. وينبغي لنا هنا عند محاولتنا فهْم هذا الواقع أن نأخذ في الحسبان أن العلم والتكنولوجيا قامت بدور مهم في إضفاء الغطاء والشرعية على النِّظام الاقتصادي والسياسي (هابرماس، ١٩٧٠). فالمتلاعبون بالعقول لم يعملوا إلا على ترسيخ هذه التغيرات وزيادة آثارها المفككة والمدمرة للمجتمعات.

إن المجتمع من خلال أفراده يجب أن يغير نفسه بنفسه، يجب أن يبدع من خلال نماذجه المعيارية والثقافية فهو بلغة تورين ليس

إنتاجًا وتكيفًا فقط، بل هو خَلْقٌ، وإنتاج نفسه، وله القدرة على تعريف نفسه، وبالتالي يستطيع أن يقيم علاقاته مع محيطه من خلال نماذج معرفته. وهذا ما يؤكده تورين حيث قوله «تتعلم المجتمعات أنْ تعرف ذاتها اجتماعيًا عندما تعرف أنها نتاج عملها وروابطها الاجتماعيّة» (١٩٧٣).

وقد مثلت فترة الستينيات من القرن العشرين حداً فاصلا بين تفكير سابق خاص بالمجتمع وميلاد تفكيرٍ جديدٍ لم يعد يتخذ من البناء الاجتماعيّ أساساً للتحليل كما جسّد ذلك الاتجاه الوظيفي أحسن تجسيد وتفكير يتخذ من واقع الحياة اليومية أساساً منهجياً ومعرفيًا. فواقع الحياة اليومية والتفاعل اليوميّ وجهاً لوجه أصبح هو أساس "البراديغم" Paradigm الجديد ليس فقط في أمريكا بل امتد إلى أوروبا.

وهكذا أصبح علم اجتماع الحياة اليومية هو الكفيل بإعطائنا أفضل فهم لمشكلاتنا الاجتماعيّة حتى يمكن التحكم في التغيرات التي تشهَدها مجتمعاتنا المعاصرة والفاعلون الاجتماعيّون. فلم يعد مع هذا النموذج الجديد ينظر إلى الفرد على أنه نتيجة للتغيرات التي تحدث في المجتمع وتترك بصماتها واضحة عليه وعلى بنائه الاجتماعيّ بل أصبح الفرد فاعلاً ومنشئاً لهذا التغير لذلك وجب النزول إلى هذا الفرد وتفاعله اليومي علنا نستطيع أن نصل إلى فهم أفضل لهذا الفعل وهذا الفاعل وهذه الأبنية.

أصبَح الفاعل يحتل مكانة أساسية ومركزية في قلب التحاليل الاجتماعيّة الحديثة، فبعد أن غيبت البنيوية الإنسان الفاعل من مسرح الحياة اليومية ونزعت منه حريته ووعيه وعقلانيته، بل أعلنت موته من خلال عبارتها المشهورة التاريخ بدون فاعل، وبعد أن أخضعته الوضعية والوظيفية إلى حتمية قاتلة ها هي الاتجاهات الحديثة تعيد إليه الاعتبار وتحرره من أسر كل ذلك، ففكرة الفاعل تتعارض مع الحتمية كما صورها الفكر الوضعي من أن الفعل هو النتيجة للحتمية الموضوعية، وعودة الفاعل تتعارض أيضا مع الفكر النقدي المتشدد الذي لا يرى في السلوك أو الفعل الاجتماعيّ سوى تعابير لهيمنة بنيوية كما يظهر ذلك في مؤلفات بيار بورديو (Wieviorka, 2000).

إن قضية الفعل والفاعل والبنية كانت من المواضيع المثيرة والمهمة التي تناولها علماء الاجتماع في العقود الأخيرة من القرن الماضي وخاصة الأوروبيين منهم (هابرماس، بورديو، تورين، كروزييه). إن تحاليل هابرماسكانت تسعى إلى تحرير الفرد من "الاغتراب" الذي يعيشه أكثر من اهتمامه في تغيير البنية الاجتماعيّة الموجودة. بالنسبة لهابرماس، ليس من الضروري أن نغير المجتمع لتحسين وضع الفرد بل يجب أولاً وقبل كل شيء تغيير العلاقات التي هي -وبشكل عام- غير عادلة بين الأفراد حيث نجد أحداً مهيمنًا وآخر مُهيمَن عليه. هذا التغيير في مجال العلاقات الاجتماعيّة لن يكون ممكناً وذا فائدة إلا بواسطة حرية التعبير، وبصورة أُخرى التكلم بصدق وليس كلاماً مشوهاً، والذي يسمح بالاعتراف بكرامة واحتياجات الآخر، ولكن بصورة ضمنية، ولكي نصل إلى هذا الهدف يجب أن نغير المجتمع في حد ذاته؛ لأن العلاقات بين الأفراد حالياً في البلدان المتطورة لا يمكن أن تتغير إذا بقي المجتمع على حالته هذه.

إن هابرماس يدعو إلى تغيير المجتمع ليس بواسطة تغيير الأبنية ولكن من خلال العلاقات بين الأفراد، فالعلم الحديث حسبه أنه ذو طبيعة قهرية؛ لأن الاتصال فيه قد تم تشويهه والعبث به، فلم يعد الاتصال تعبيراً عن الحقيقة، وإنما أصبح وسيلة لنشر الأيديولوجيا التي تخدم مصالح الأقوياء فقط. ولكي تتحرر الجماهير، يتعين القضاء على السببين الرئيسيين لتشويه الاتصال، وهما: إضفاء الشرعية وتبريرها، والأيديولوجيا وأول شكل من أشكال هذا التغيير هو الخطاب (تشرتون وبراون، ٢٠١٢: ٦٢).

لقد حاول هابرماس- من خلال هذه العقلانية التواصلية التي تتخذ من الحوار والمناقشة الحرة، بدون إكراه والذي يتم عن طريق اللغة- أن يقدم نموذج "براديغم" جديد يقوم على رؤية موسوعية تركيبية محورها الفلسفة وعلم الاجتماع واللسانيات التداولية وفلسفة القانون، يقوم مقام سرديات فلسفة الوعي بجميع مشاربها، سواءٌ كانت ليبرالية أو ماركسية (مصدق، ٢٠٠٥: ١١٩). إن نظرية هابرماس حول الفعل التواصلي Communicative Action كانت محاولة متميزة، من خلالها أراد أن يضع الفرد في مكانه الطبيعي، إنه فرد يشارك بكل حرية في الحوار والمناقشات العامة التي تهم المجتمع.

أمَّا بورديو عالم الاجتماع الفرنسي الذي اشتهر في نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين (١٩٣٠-٢٠٠٢) فإنه في الأصل فيلسوفٌ، قدم إلى علم الاجتماع بخلفية اثنولوجية، إنه استطاع أن يشتق لنفسه طريقاً خاصاً في النظرية السوسيولوجية، من خلال نظريته التي أسماها البنيوية التكوينية. وكانت شهرته في الأساس في مجال علم اجتماع التربية، وبالنسبة لبورديو فإن المدرسة هي مكان لإعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعيّة، فالأطفال ذووا الأصول العمالية فرصتهم للالتحاق بنخبة المجتمع قليلة جدًّا، وهذا نتيجة لعدم قدرة الآباء على مساعدة أبنائهم في دراستهم وتوجيههم إلى اختياراتٍ ستمكنهم من النجاح، انطلاقاً من هذا، فإن المدرسة ليست مؤسسة حيادية كما يدّعون، ولكنها مؤسسةٌ للهيمنة تسعى للحفاظ على التفرقة بين المهيمنين والمهَيمن عليهم في المجتمع.

استطاع بورديو أن يوسع هذا المفهوم الخاص بالمدرسة إلى مستوى المجتمع ككل، فاللامساواة المدرسية هي لا مساواة اجتماعية مدعمة من طرف مؤسساتٍ بما فيها الدولة التي تحافظ عليها. إن إعادة الإنتاج التربوي هيَ في آخر الأمر أحد مضاعفات عناصر إعادة الانتاج الاجتماعيّ، فالمدرسة بالنسبة لبورديو لها توجُّه لأنْ تعيد نفسها. متأثراً بدوركايم حول الوظائف الاجتماعيّة وحتمية الظواهر الاجتماعيّة وماركس حول النقد الاجتماعيّ، وفيبر حول فعل الهيمنة، هَدف بورديو- مثله مثل بارسونز - إلى عمل توليفة من المفاهيم الأساسية للمؤسسين الكبار في علم الاجتماع، ولكنه كان يسعى في النهاية إلى خلق نظريةٍ جديدة خاصة، وهي البنيوية التكوينية، التي يمكن تلخيصها في العبارات التالية: الاجتماعيّ يبنى ويتكون في الأعماق إدراك، تفكير، فعل) ويعاد بناؤه من جديد في أبنية واضحة (أبنية اجتماعية ذات طابع مورفولوجي ومؤسساتي) (Boutefnouchet, 2004: 283-285).

أمَّا ميشـيل كروزييه فإن الفعل بالنسـبة له هو ما يحدد الفاعل، فالفـرد داخل التنظيم هو عنصر للتسـيير العقلانـي. والمجتمع يتطور بواسـطة اسـتراتيجية عقلانية محددة الهدف تترك للفرد هامشًـا من الحركة، ويكون لديه القدرة على التدخل والمشاركة، ومهما كانت الضغوطات الخارجية فإن الفرد الفاعل داخل النسق يحتفظ دوما بنافذةٍ من الحرية. إن سلوك الفاعل عبارة عن نتيجة لاسـتراتيجية عقلانية، ولكن هذه العقلانية ليسـت خالصة، إنها محدودة، الأفراد فيها لا يتخذون القرارات المثلى، ولكن يعتبرونها كافيـة من خلال مـا هو متوفر لديهم مـن المعلومات والوضعية وشروطها (العقلانية المحدودة) (Crozier, Friedberg ,1977).

أمَّـا بالنسـبة لآلان تورين فإن المجتمع لا يعيد نفسـه من خلال النِّظام التربوي، ولكن من خلال الحركات الاجتماعيّة التي تقوده دائماً إلى الأمام، وبالنسـبة لتورين فإن الحركات الاجتماعيّة هي المـكان الأكثر تعبيراً التـي تقود العالم. إن الفعـل الذي يقوم به الفاعل بالنسـبة ل "تورين» هو الذي يبنـي المجتمع، فالمجتمع هـو نتيجة للفعل الاجتماعيّ الذي يجب اعتباره كنشـاط تحكمه القيم المعيارية والثقافية (Claud Gerard, 1997). إن هذا الطرح يختلف كليةً عن طرْح دوركايم أو ماكس فيبر أو بيير بورديو، إن الفعل الاجتماعيّ بالنسبة لدوركايم يتحدد في ضوء السلوك وطرق التفكـير والشـعور وهذه العمليـات خارجة عن الفـرد، وتتمتع باسـتقلالية عنـه في الوقت نفسـه، فهي سـلطة قسريةٌ تفرض نفسـها على الفاعل. أما بالنسـبة إلى فيبر، فإن الفعل الاجتماعيّ الـذي يقوم به الفاعل يتحدد من خلال المعنى الذي يضفيه الفاعل عـلى هذا الفعل، وهـذا لا يصبح له معنى أو دلالـه إلا بمقدار ما يدخل في الحسبان من سلوك الآخرين وبمقدار ما يتأثر بهم في هذا الإطار (Ocher, 1986: 30-25).

وهكذا يبدو الاختلاف واضحاً بين هؤلاء المفكرين، فالفعل بالنسبة ل "تورين" ليس قسرياً أو خارجيًّا، وهو ليس ذاتيًّا، ويتحدد من خـلال الآخرين وليس بنيويًّـا تكوينيا، وهو ليـس فِعلاً محدوداً بوضعيةٍ معينة، إنه بالنسـبة إلى تورين خلقٌ وإبداعٌ بعيداً عن كل قهر أو قسر. إن الفاعل وفق هذا الطرح الجديد هو أن تكون فاعلا في وجودك، تخلق تاريخك الشـخصي، تعطي معنى لتجربتك وهذا مـا يظهر جلياً من خلال مؤلفات ألآن تورين الأخيرة، حيث يعتبر هذا الأخير أبرز ممثل لهذا التوجه الجديد.

إن مقولـة الفاعل معناها القدرة على الكفاح ضد الهيمنة والعقل الأداتـي، الذي عوضاً عـن أن يضيف الحرية كمـا يدعى، فإنه في حقيقة الأمر ينفي شخصية الفاعل في الأساس، ويجعله مستهلكًا مـن غير روح، يجعله فـردًا تدفعه وتحركـه الصناعات الثقافية والإعلام، وعاملًا يخضع للتايلورية منزوع الاسـتقلالية في مجال العمل (Wieviorka, 2000).

فالفاعـل إذن، هو القدرة عـلى التوجه ضد التبعيـة للمجموعة، ضد قانـون الجماعة، ضد أي حتمية أو أمـر مهما كان مصدره، سـواء أكان معايـير أم أدوارًا محددة من طـرف الثقافة أو الدين أو الطائفـة، فالفاعل هو التأكيد للحرية الشـخصية والقدرة على الاختيار وعلى المشاركة. ولكن هذا التعريف يعتبر جزئيًّا وناقصًا، وهو الوجه الأول للفاعل؛ ولذلك يجب أن يكمل بما يسـمى الوجه الآخر للفاعل، فقدرته ليست دفاعية واعتراضية كما يبدو للوهلة الأولى، ولكنهـا في الوقـت نفس الالتزامُ البنَّـاء والإبداع، فالفاعل هو أيضاً القدرة على الاختيار على المشـاركة والاستهلاك، فكونه فردًا عقلانيًّـا يوجب أن تكون له القدرة والحرية؛ ليختار هويته، وجماعتـه، وذاكرته. فالفاعل هو القدرة على الجمع بين الوجهين المنفصلين للحداثة، إنها قوة الحرية من جهة، والنضال ضد الأسواق والاستهلاك وضد الليبرالية البحتة (Wieviorka, 2000).

ويعتبر "الآن تورين" أبـرز ممثل لهذا التوجه الجديد فمن خلاله أعماله النظرية استطاع أن يطور مفهومه وإدراكه الخاص للتحليل السوسـيولوجي الذي ينهض على ركيزتين: أولاً، جهاز مفاهيمي (نسـق الفعل التاريخي، ونسق مؤسسـاتي، وحركة اجتماعية، وفاعل.. إلخ)، وثانياً، مسـلّمة مفادها أن المجتمع هو نتاج للفعل الاجتماعيّ وللأفراد والجماعات العضوية. وتجب الإشـارة في هذا السـياق إلى أن إدراك تورين للفاعـل الاجتماعيّ عرف تغيُّراً كبيراً، بل اتجاهاً معاكساً، فلوقت طويل اعتبر الفاعل الاجتماعيّ كحركة جماعية حاملة لتاريخانية، أو كنشاط جمعيٍّ، يقول في هذا الشأن "الفعل الاجتماعيّ هو نتاجٌ، ومن خلْق عملِ الانسان، وهذا الخلق ليس إلا جماعيًّا (Touraine, 1965).

ولكن هذا الادراك تم التخلي عنه لاحقاً من طرف "آلان تورين" وخاصة منذ صدور كتابه "عودة الممثل" (١٩٨٤) حيث تخلى عن الإدراك الجماعـي للفاعل، بل اعتبره هنـا فاعلًا فرديًّا، يبحث عن معنى، وهذا ما أكدته مؤلفاتـه اللاحقة "نقد الحداثة" (١٩٩٢)، "ما هي الديمقراطية" (١٩٩٤)، "هل نسـتطيع أن نعيش سوياً" (١٩٩٧). أن تكـون فاعـلاً هو أن تكون لـك القدرة على أن تكون ممثلاً، بمعنى أنك تسـتطيع أن تغير محيطك عوضاً عن أن تكون محـدوداً بـه. ويضيـف تورين قائـلا "إنني حاولـت أن أبين أن الديموقراطية هي مجموعة من الشروط المؤسساتية التي تسمح لـكل فرد أن يكون فاعلاً، وذلك بـأن يدمج هذين البعدين، وهما: إعطاء معنى لحياته والاعتراف بالآخر (Wieviorka, 2000).

وفي ربْطه بين الحداثـة والفاعل فإن تورين ينطلق في تفرقته بين الفاعل والطبيعة، بين العالمي والخصوصي، يقول في هذا الخصوص "هـذا مـا أردت أن أشرحه في مـا هية الحداثة، عكـس ما يظنه الكثير، فإن الحداثة ليسـت العقلانيـة ولا العلمانية، إنها التفرقة بين الفاعل والطبيعة، إن المفكرين الذين ندعوهم الأوغسـطنيين قد أقاموا تعارضا بين الطبيعة والفاعل أو بين الاتجاه الذي يوحد بينهما، إنهم عملوا تفرقة بين نظام الطبيعة ونظام الفاعل، ومن بين هؤلاء يمكن ذكر لوثر، ديكارت، لوك ومنظري الحق الطبيعي مث Grotuis g. وحتى الإعلان العالمي لحقوق الإنسـان -الصادر عن منظمة الأمم المتحدة في ١٩٤٨- يسير في هذا التوجه.

انطلاقاً من هذا فإن هذه الثنائية الرئيسـية بين العقل والفاعل تسـتدعي التفرقة بين الحياة السياسـية والحيـاة الخاصة، إننا نعيـش في عالم حداثـيٍّ، فإلى جانب دورك الاجتماعـيّ فإنه لديك الحق للخيال، للجنس، لآرائك الخاصة. إنني أسـعى حالياً-يضيف توريـن-إلى أنْ أقنع الأعضاء الذين أعمـل معهم في المجلس الأعلى

للاندمـاج بأن يسـتبدلوا مصطلح الاندمـاج بمصطلح الاعتراف بالآخر. المجتمع الديمقراطي هو المجتمع الذي يعترف بالآخر ليس فقـط باختلافه ولكن كفاعل. أن تكون فاعـلاً هو أن تجمع بين العالمي والخصوصي (Cabin Et jean, 2000).

خاتمة

١- إن كثرة نظريات ونماذج علم الاجتماع وتعدُّدها تعكس تباين الرؤى والتصورات للواقع الذي نعيشه، وهي تعكس من جهة ثانية صعوبة الواقع وتعقده، ومع ذلك نحن محتاجون لهذا التنوع والتعدد؛ لأنه يعتبر إثراء للنظرية الاجتماعيّة وطريقًا صحيحًا لتفسير واقعنا الاجتماعيّ المعقد وفهْمِه.

٢- نحن نشـهد دخول مرحلة جديدة، عنوانها الثقافي والحقوق الثقافية، إنها مرحلة تتميز بشـكل واضح بظهور الفردانية وهنا نسـتطيع القـول: إنه في مجال علـم الاجتماع ظهرت العديد من النماذج النظرية التي تعكس وجهات نظر مختلفة وتعكـس رؤى متباينة يجب الاسـتفادة منها وتوظيفها في عملية الفهم لواقعنا العربي وفي تحليل مشـكلاتنا المعاصرة وتفسيرها.

٣- من خلال ما سـبق من تحليل، يبـدو وتجاوزاً للثنائيات التي طبعت علم الاجتماع والنظرية السوسيولوجية بشكل خاص منذ البداية: الفردي والجماعي، الفردانية والشمولية، الممثل والنسـق، الفرد والبناء ..إلخ، أن النظرية الاجتماعيّة مقبلة عـلى مرحلة جديدة تدعو إلى تجاوز تلـك الثنائية، وإلى إقامة علاقـة بين قطبي هـذه الثنائيات ، وهكذا تعـاد العلاقة من جديد وفق التغيرات التي يشـهدها المجتمع ليس على الصعيد المحـلي فقط بل العالمي أيضاً وعندهـا يمكن القول إن عصر السوسـيولوجيا المنتـصرة قد عـاد، وإن ولادة المجتمع من جديد قد تحققت.

٤- إن مجمل الاتجاهـات النظرية التي تم التعرض إليها حللت المجتمعـات انطلاقاً مـن منظور مجتمعـات العالم الغربي وتاريخ العالم الغربي، وربما كان الاستثناء هو الآن تورين، الـذي حاول ومـا زال يحـاول أن يطور نظريته؛ لتشـمل الإنسانية كلها، خاصة دعوته إلى احترام وتقبل الآخر، وهذا في مقابل المفهوم الذي ساد سابقا "القبول" «Tolérance» الذي يحمل في طياتـه أو خلفيته الاقصاء والاختلاف، بينما مفهوم الاحـترام «Respect» يحمل معنى المسـاواة. لهذا يبدو أن نظرية توريـن أقرب إلينا في الوطن العربي، إذ إنها تتيح لنـا أو للفاعل بلغته مزيداً من الحرية والاسـتقلالية والمسـاواة وإدراك الذات، وهذا ما نحـن محتاجون إليه في عالمنـا العربي الذي يكـون فيه الفاعل سـجين أبنية باليةٍ وقديمةٍ تجاوزها الزمن، وبلغة المفكر الراحل محمد أركون (١٩٢٨-٢٠١٠) في كتابه «نقد العقل الإسلامي «يجب تجاوز السياج المعرفي الذي تعيش فيه مجتمعاتنا، فيجب على العقل العربـي حتى يتحـرر أن يتخلى عن كل وصايـةٍ مهما كان نوعهـا، إن الفاعل يجب أن ينشـد الحريـة والديمقراطية والعيش المشترك.

٥- يجـب علينا كمجتمعـات عربية، تسـعى إلى تغيير محيطها وواقعهـا وشروط حياتها، مجتمعات لم تعـي بعد الحداثة وتوفـير شروط نجاحهـا، أن نعي كل ذلـك. بمعنى آخر، إن خلـق واقع اجتماعي أو سـياسي جديد هو فعـلٌ مرتبطٌ بنا وبنشاطنا وإرادتنا الصادقة في التغيير بعيدًا عن كل وصاية أو سلطة، فأفعالنا يجب أنْ تكون نابعةً منا، انطلاقا من واقعنا الراهن الذي يحتاج إلى التغيير والإصلاح في جميع الميادين. إن رياح التغيير والديموقراطية قد هبت منذ سقوط جدار برلين ومنذ حدوث ثورات الربيع العربي أو كما يطلق عليه البعض ثورات الخريف العربي ...وهي لا محالة سـتصل إلينا، فإما أن نغير أنفسنا وبإرادتنا وإمَّا أن نتغير بالقوة وبإرادة غيرنا.

٦- حتى نضمن فعالية عِلم الاجتماع في مُجتمعنا العربيِّ؛ لابدَّ من الاهتمام ببناء نماذج ونظريات عربية في علم الاجتماع؛ لأنها سـوف تكون أقرب إلى واقع المجتمعات العربية ومشـكلاته، بما يَضمن فاعليَّة هذا العلم وحيويَّته في فهم وتحليل وتفسير كلِّ ما هو مسـتجدٌّ على الساحة الاجتماعيّة العربية واقتراح الحلول للمشكلات الاجتماعيّة القائمة في المجتمعات العربية.

المراجع

أبو النصر، مدحت محمـد، ٢٠١٦، علم اجتماع الاتصال والإعلام. القاهرة. المكتبة العصرية.

أفايـة، محمد نور الديـن، ١٩٩٥، الحداثة والتواصل في الفلسـفة النقديـة المعاصرة-نموذج هابرماس. الـدار البيضاء. دار افريقيا للنشر.

الجوهري، محمد، ٢٠٠٠، المدخل إلى علم الاجتماع. الإسـكندرية. دار المعرفة الجامعية.

العنزي، فـواز، ٢٠٠٧، النظرية البنيوية: بديل ثالث. مجلة العلوم الاجتماعيّة، ٣٥ (٢)، ٢٧-٤٦.

أنجـرس، موريـس، ٢٠٠٤، منهجيـة البحـث العلمـي في العلوم الإنسانية. ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون. الجزائر. دار القصبة للنشر.

بـودون، ريمـون، ٢٠١٠، ابحاث في النظرية العامـة في العقلانية. ترجمة جورج سليمان. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.

بورديو، بيير، ١٩٩٥، اسئلة علم الاجتماع. ترجمة ابراهيم فتحي. القاهرة. دار العالم الثالث.

تشرتون، ميل وآن براون، ٢٠١٢، علم الاجتماع النظرية والمنهج. ترجمة هناء الجوهري. القاهرة. المركز القومي للترجمة.

جونز، فيليب، ٢٠١٠، النظريات الاجتماعيّة والممارسـة البحثية. ترجمـة محمد يـاسر إلخواجـة. القاهرة. مـصر العربية للنشر والتوزيع.

جيدنـز، انتوني، ٢٠٠٠، علـم الاجتماع. بيروت. مركز دراسـات الوحدة العربية.

جـين، نيكولاس، ٢٠١٤، مسـتقبل النظريـة الاجتماعيّة. ترجمة يسرى عبـد الحميد رسـلان. المركز القومي للترجمـة. القاهرة. مصر.

زايـد، أحمد، ١٩٨١، علـم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسـيكية والنقدية. القاهرة. دار المعارف.

عبدالله، أمل؛ محمود بسنت، ٢٠٢٠، علم الاجتماع العام. القاهرة. كلية الآداب، جامعة حلوان.

عمـران، كامل محمـد، ٢٠٠٤، المـدارس الاجتماعيّـة المعاصرة. دمشق. منشورات جامعة دمشق.

عودة، محمود، ٢٠٠٠، أسـس علم الاجتماع. بيروت. دار النهضة العربية.

غيـث، محمد عاطف وآخـرون، ١٩٧٩، قاموس علـم الاجتماع. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مصدق، حسـن، ٢٠٠٥، يورغنهابرماس ومدرسـة فرانكوفرت: النظرية النقدية التواصلية. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي.

المراجع الأجنبية

Baudrillard, J. (1970). La Sociètè De consomation. edition De Neoel. Paris. France.

Berger, P. and ThomasLuckmann (1966). The Social Construction of Reality. N.Y. Penguin Putnam.

Berthelot, J. M (1996). Les vertus De L'incertitude, Puf,. Paris.

Boudon, R. (1977). Effetspervers Et Ordreocial. PUF. Paris.

Bourdieu, P. (1972). An outline of the Theory of Practice. N.Y. Cambridge University Press.

Boutefnouchet, M. (2004). M. introduction A LA Sociologie. Alger .O P U. Universite. Bruxelles.

Cabin, P. et Jean-François Dortier (Coordonné) (2000). La sociologie Histoire et idées, Edition Sciences Humaines. Paris.

Corcuff, P. (1995). Les Nouvelles Sociologies. Paris. Nathan.

Crozier M. and Friedberg E. (1977). L'acteur et le syst'eme. seuil. Paris.

Elias, N. (1973). La civilisations des Mœurs. Calmann-levy. Paris.

Elias, N. (1975). La Dunamique De L'occident. Calmann-levy. Paris.

Elias, N. (1991). La Société des Individus. Fayars. Paris.

Gerard, C. (1997). Histoire de la sociologie. Alger: Dar el afaq. Bruxelles.

Giddens, A. (1979). Central problems in social theory. Berkeley.University of California press.

Habermas, J. (1970). Toward a rational society. Boston. Becan Press.

Martucceli, D. (1999). Sociologie de la modernite, edition gallimart. Paris.

Mead, George (1934). Self and Society. Chicago. University of Chicago Press.

Mendras. Henri et Forse. Michel (1991). Le changement Social. Paris. Armand Colin.

Merton, Robert. (1979). the Sociology of Science: Theoretical and Empirical Investigations: Chicago. University of Chicago Press.

Merton, Robert. (1957). Social Theory and Social Structure. N.Y. The free Press.

Morin, E. (1973). Le Paradigme Perdu: La Nature humaine. Edution DU seuil. Paris.

Rocher, G. (1968). Introduction a la sociologiegenerale-l`actionsociale., edition HMH.

Tourain, A. (1965). Sociologie de L action. edition du seuil. Paris.

Tourain, A. (1973). Production De la sociètè. Seuil. Paris.

Tourain, A. (2005). Un nouveau paradigme. pour comprendre le Monde D'aujourd'Hui. Fayars. Paris.

Tourain, A. (2013). La fin des Sociètès. seuil. Paris.

Wieviorka, M. (2000). Sociologie Post-classiqueoudeclin de la sociologie ? "cahiers intrnationaux de la sociologie",vol VIII. Paris.

https://www.wikiwand.com/ar/%D8%AC%D8%A7%D9%86

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AD%D9%85%

http://www.alukah.net/web/khedr/0/55385/#ixz

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%B3%D9%85_